أهمية النص والحوارية والبوليفونية في المجال التعليمي انطلاقا من تنظيرات ميخائيل باختين

أم السّعد حياة
جامعة الجزائر2

"كل ملفوظ حي، يعود، دلاليا، إلى لحظة تاريخية، داخل وسط اجتماعي محدد، لا يمكن أن يغيب عن لمس الآلاف من الخيوط الحوارية الحية المنسوجة من قبل الوعي الاجتما_إيديولوجي حول موضوع هذا الملفوظ، والمشاركة الفعالة في الحوار"
باختين

ملخص :
تروم هذه الورقة الوقوف عند أهمية توظيف اجتهادات ميخائيل باختين في تعليمية اللغات، خاصة أنه أكد على أهمية النص باعتباره أساس التواصلات الإنسانية، فهو بينة لا متجانسة، تدخل العديد من البنى في تكوينه، ما جعله مفعما بطابع حواري وجو بوليفوني مليء بالحركة، لهذا عجزت اللسانيات الكلاسيكية بأدواتها الإجرائية المحدودة عن مقاربة الظاهرة النصية المعقدة، فاقترح باختين المجال عبر اللساني الذي من خلاله نتمكن من البحث في بنى النص ووظائفه.
معرفة أن للنص بنى، عَدا البنى النحوية والصرفية والتركيبية التي تتآلف مع هذه البنى القارة في أي نص لتشكل كليته المتنافرة، أمر ضروري على متعلم اللغة أن يعيه جيدا، فالنصوص على اختلافها تتداخل فيها العديد من الخطابات حسب جنس النص، وهو ما جاء في نظرية باختين ، فتوقفنا لذلك عند مفهومه للنص والتحليل النصي في المجال عبر اللساني، وأهمية البعد الحواري والتعدد الصوتي في التشكيل النصي.
***الكلمات المفتاحية:** النص، عبر، اللسانية، الحوارية، البوليفونية، اللاتجانس.*

Résumé :
Nous partons, dans cette communication de la critique des méthodes structuralistes entamées par M. Bakhtine.
Les travaux de Bakhtine sont très suggestifs pour appréhender le domaine didactique. En nous fiant aux études de M. Bakhtine, on peut s'apercevoir que le texte n'est pas uniquement structure grammaticale mais rappport constant avec divers voix, textes…
Nous mettons en relief certaines notions essentielles de Bakhtine, ou rapport avec ses conceptions, comme translinguistique, polyphonie, Héterogénéité…tout en les considérant comme essentielles dans le renouvellement des approches didactiques.
***Mots clefs :** Texte, Translinguistique, Dialogisme; Polyphonie, Hétérogénéité.*

من المهم جدا أن نستفيد ونستثمر جهود ميخائيل باختين Bakhtine Mikhail التنظيرية في مجال تعليمية اللغات، خاصة أنه كان من بين الأوائل الذين وسعوا الدرس اللساني باقتراح علم جديد سماه الدراسة عبر- اللسانية La translinguistique، حاول من خلاله أن يحدد آليات خاصة من أجل مقاربة النصوص، وفي قفزته هذه وقف مبينا الثغرات الأساسية التي تركتها لسانيات دي سوسير، خاصة عدم اهتمامها ودراستها الخطابات الطويلة التي يستعملها الإنسان في حياته اليومية الفنية مثل الراوية أو المسرح... هذا ما جعل باختين يقف ليجلي جملة من الحقائق المعرفية التي بها فتق أفاق درس لساني متفتح يركز على أهمية النص الذي عده أساس تواصلات الإنسان في حياته.

رأى باختين أن اللسانيات عاجزة بأدواتها الإجرائية عن مقاربة النص وتحليله، لأن النص معقد جدا في بنيته، ويطرح العديد من المشاكل: مشكل حدوده ومؤلفه وقارئه، ومشكلة تداخله مع نصوص أخرى، ومشكل الأصوات التي ترن بداخله، وكل هذا يصنع جوهره، لهذا من المفيد جدا الاتكاء على اجتهادات باختين في التعليمية من أجل إبراز أن للنص بنى وله وظائف عديدة يؤديها وهي ترتبط بمجالات استعماله المتنوعة، لذا لا يمكننا أن نختزل النص فقط في بنائه النحوي، والصرفي والتركيبي، بل يجب أن نقف عند بنى أخرى تساهم في تكوين لحمته، فعلى متعلم اللغة أن يدرك خصوصية النص ليقوى على فهمه أو تعلمه ودراسته.

سنقف في هذه الورقة عند أساسيات مهمة وردت في تنظيرات ميخائيل باختين، التي نوظفها لنبين كيف يمكن لاجتهاداته أن تستثمر في مجال التعليميات، كما استعملت في ميادين أخرى كتحليل الخطاب والدراسة التداولية والسميائيات، ذلك بهدف استنباط طريقة جديدة لتطوير التعليم انطلاقا من التركيز على النص لا على جمله فقط، لأن النص في الدراسة عبر- اللسانية ليس متتالية من الجمل.

بما أن أرضية عملنا اختارت أن توظف بعضا من اجتهادات هذا المنظر، فسننطلق لنبين كيف أفاد وطور وكشف عن القصور الوارد في الدرس اللساني السوسيري كما وصلنا من المحاضرات التي جمعها تلامذته، ثم نعرج على مفهوم باختين للدراسة عبر اللسانية المخولة لمقاربة النص، ونقف بعدها لنتعرف على مفهوم النص وما يطرحه من مشاكل، لأن النص في تنظيراته لا يعرف إلا في علاقته بباقي النصوص وهو البعد الحواريDialogique الذي سنركز عليه، وعلى مفهوم البوليفونية La polyphonie باعتبارها مجموع الأصوات التي نسمع صداها داخل بعض النصوص، فكثيرا ما يلتقي متعلم اللغة في النص الواحد بجملة من النصوص التي تتداخل فيه، كيف له أن يفسر هذه الظاهرة أو يدرسها؟ أضف إلى ذلك أن بعض النصوص تورد الخطابات المنقولة، فهل يصبح النص هنا ملكا لذات واحدة؟ كيف للطالب أو المتعلم مثلا أن يكتب نصا ويوظف بداخله العديد من النصوص المتحاورة التي ليست ملكا له؟

تُعد الظاهرة النصية من أشد الظواهر تعقيدا في مجال العلوم الإنسانية، لهذا مازالت جهود باختين أرضية العديد من التنظيرات الحديثة ، لأنه توقف ليدرس ما يطرحه النص من مشاكل، وما دام النص جوهر تعاملاتنا وتعلمنا لا بد أن نكشف طبيعته، بالوقوف عند بنيته الحوارية والبوليفونية، وقبل البحث فيهما نقدم المفهوم الذي قدمه باختين للعلامة اللسانية le signe linguistique وبُعدها الاجتماعي، لأن الحديث عن حوارية النصوص، يخرج مفهوم النص من انغلاقه حول الذات المنتجة فقط والطابع النفسي الذي كثيرا ما حددت به العلامة اللسانية.

1. العلامة وبُعدها الاجتماعي:

أطلق باختين على لسانيات دوسوسير مصطلح الموضوعية المجردة Objectivisme abstrait، لأن هذا الأخير يُعرف اللسان على أنه موضوع مجرد، ومتعال، آن ومتجانس، ويرفض دراسة الكلام، ويخرجه من حقل اهتمامه العلمي، لأن الكلام حسب دوسوسير تأدية فردية.وهنا نقطة الاختلاف،فباختين ينطلق أصلا من الكلام أو التلفظ، مصرحا لا بطبيعته الفردية لكن بطبيعته الاجتماعية، المرتبطة ارتباطا وثيقا بشروط التواصل التي تقترن دائما بالبنى الاجتماعية، لهذا نجده يقول: "إذا كان الكلام محرك التحولات اللسانية، فهو ليس فعلا فرديا، الحقيقة أنه في الكلمة/اللغة تغوص كل النغمات accent الاجتماعية المتعارضة" (باختين، 1977، ص13)

نصوغ مما تقدم أول نقطة اختلاف،فباختين يركز على البعد الاجتماعي والإيديولوجي للعلامة،عكس دي سوسير الذي يركز على البعد النفسي لها، فحسب الأول كل تغيير في البنى الاجتماعية، يدخل تغييرا على اللسان. فلا وجود للكلمة أو التلفظ من دون سياق اجتماعي، لهذا: "فكل متكلم إلا ويحمل أفقا اجتماعيا معينا يعينه على اختيار الكلمات المناسبة".(باختين، 1977، ص15)

فالإنسان ابن بيئته، يتلقى كلماته الأولى ومعانيها في ظل المجتمع الذي ينتمي إليه فيتعلم الكلام انطلاقا من الأسرة التي تعيش في كنف مجتمع تؤطره ثقافة محددة وبنية معرفية خاصة، وعادات وتقاليد، يكتسبها الإنسان دائما من الوسط الذي ينشأ فيه، لهذا يكون اكتسابه اللغوي الأولي مشروطا بالبنية الاجتماعية التي ينتمي إليها، لهذا كان نفي البعد الاجتماعي عن العلامة والتركيز فقط على طبيعتها النفسية المجردة التي لا ترتبط بالواقع أي بمرجعية محددة، كافيا للحديث عن الأمارة هنا لا العلامة، لأن بينهما فرق يقدمه لنا باختين في سياق نقده لمفهوم العلامة عند دي سوسير،فالعلامة تتطلب فهما ايديولوجيا، أما الأمارة فتتطلب تعرفا عليها، وبنفي دوسوسير للمرجع أي الواقع جعل من العلامة تعرفا فقط، فتصبح بذلك أمارة توصف، لهذا يقول: "كل ما هو إيديولوجي إلا وله مرجع، ويدل على شيء ما خارج عنه، وبعبارة أخرى كل ما هو إيديولوجي فهو علامة، ومن دون علامة لا وجود للايديولوجيا"(باختين، 1977،ص25)، إذًا، يربط باختين وجود الايديولوجيا بالعلامة، وكلاهما يدل على شيء خارج عنهما، هو الواقع الذي نتصيد منه هذه العلامات ونستعملها وفق متطلباتنا التواصلية.

ما نلاحظه هو أن باختين ربط العلامة بـالاستعمال الخارجي الذي يحددها ويعطيها معنى قابلا للتداول في وسط وسياق اجتماعي محدد،" فالعلامة لا وجود لها إلا باعتبارها جزءا من الواقع، بل تعمل على عكس واقع آخر. لهذا فكل علامة تخضع إلى قوانين التطور الإيديولوجي ....ومنه يتقاطع المجال الإيديولوجي بالمجال العلاماتي...."(باختين، 1977، ص27).

نستنتج مما تقدم مبدأ مهما من مبادئ باختين، وهو أن العلامة في ذاتها إيديولوجيا، ولا يمكن أن يتحقق وجود الواحد منهما إلا بالآخر، وإن تعددت المجالات التي يظهران فيها والحقول التي يتقاسمانها، ومادام يعملان على عكس شيء خارج عنهما فهما يدخلان في مجال التمثلات les représentations ، تمثلات الرموز الدينية والقوالب العلمية والأشكال القضائية، وكل حقل من هذه الحقول له طبيعته الخاصة في التوجه إلى الواقع، أو بعبارة أخرى كل يعكس الواقع بطريقته، وكل حقل إلا ويمتلك وظيفته الخاصة في مجموع الحياة الاجتماعية، التي تعد قطعة مادية من هذا الواقع.

يركز باختين على الطبيعة المادية للعلامة التي ليست فقط انعكاسا أو ظلا للواقع، ولكن هي مقطع مادي من هذا الواقع، فكل ظاهرة تعمل كعلامة إيديولوجية إلا ولها بعدها المادي، سواء كانت أصواتا أو ألوانا أو حركات الجسد أو أي شيء أخر، بهذا المعنى فإن: "حقيقة العلامة موضوعية تماما، فهي ظاهرة من ظواهر العالم الخارجي"(باختين، 1977، ص28)، أي العالم المادي الواقعي الذي يتعامل معه الإنسان، فتصبح خاصية العلامات في كونها لا تظهر إلا في مجال التفاعل بين الأفراد، أي في واقعيتها الجدلية وماديتها الاجتماعية لا في تجريديتها ومثاليتها.

نصل مما تقدم إلى أن باختين نقد دي سوسير مركزا على أن العلامة محصلة تلاقح وعيين فما أكثر في سيرورة اجتماعية ما، ومفهوم هذا التلاقح والتفاعل هو ما يتجلى في تحديده لطبيعة النص ومشاكله التي لن تكون اللسانيات الكلاسيكية قادرة على حلها مادامت لا ترى العلامة إلا كيانا نفسيا مجردا متغافلة عن طابعها الاجتماعي، وبما أن النص يتحدد بكونه جملة من العلامات التي تصنع وجودها بتلاحمها مع علامات أخرى داخل النص وخارجه، اقترح باختين دراسة تتجاوز الدراسة اللسانية ،فاقترح المجال عبر اللساني الذي سنتعرف عليه وعلى ماهية النص في ظله، لأنه من الضروري أن ننطلق في العملية التعليمية من النصوص لأنها عماد التواصلات الإنسانية على اختلافها.

2. التحليل النصي في المجال عبر- اللساني:

أسس باختين مجالا معرفيا أطلق عليه الدراسة عبر- اللسانية ، التي جعلها امتدادا للدراسة اللسانية التي لم تستطع بأدواتها الإجرائية المحدودة أن تدرس النص باعتباره كلا، لهذا بحث باختين عن علم يتجاوز تحليل النص والتوقف فقط عند بناء الجملية وما تصنعه من علاقات ضيقة فيما بينها، لأنه كان يرى أن النص شيء أكبر من الجمل التي يتحقق من خلالها، لأنه يرتبط بمؤلفه من جهة وبسياقات تلفظه من جهة أخرى، وبقارئه،بالإضافة إلى باقي النصوص التي يحاورها في داخله والمحيطة به من الخارج.

لهذا رأى باختين أن الدراسة عبر- اللسانية تتعامل مع الظاهرة النصية بتفتح أكبر وذلك بالتركيز على البنيات التي أهملتها المقاربة اللسانية التي تكتسي أهمية كبيرة شدد باختين على إبرازها قائلا: "في بنائنا لمقولة اللسان وعناصره التركيبية والمرفولوجية والمعجمية..فإن اللسانيات تجرد أشكال تنظيم الملفوظات من وظائفها الاجتماعية والإيديولوجية، تجريد مثل هذا يبقى مشروعا وضروريا وهو ما يمليه الموضوع المعرفي والتطبيقي للسانيات ذاتها، فبدون اللسانيات لا يمكننا بناء مقولة اللسان كنظام"(تودورف، 1981، ص43) ولكن تعاملنا مع النص باعتباره كلا لا ينزلنا إلى مستوياته الصوتية والمعجمية والتركيبية فقط، لأنها عناصر تشكل جزءا أمام بنى النص الأخرى ووظائفه.

فإن كان موضوع اللسانيات مبني على اللسان وتقسيماته، الصوت والكلمة والجملة أو القضية، فإن موضوع الدراسة عبر- اللسانية هو الخطاب أو النص، الذي لم تستطع الدراسة اللسانية أن تحيط بكل جوانبه، وهذا يعود إلى طبيعته الخاصةالتي تختلف عن طبيعة الجملة، فكل نص، حسب باختين، (باعتباره ملفوظا) هو فردي، ووحيد ولا يمكن إعادة إنتاجه، وما يعاد إنتاجه في النص هو المادة ،لهذا: فالنص يدرس ضمن الإطار اللساني أو الفيلولوجي، إنما يدخل في مجال عبر- لساني، وهذا الجانب من أوجه النص ملك له فقط، فالنص لا وجود له إلا في سلسلة النصوص (أي داخل التبادل اللفظي في مجال معين)، فلا ينظر إليه كمادة قابلة للتكرار ولكن في علاقاته بباقي النصوص (باختين، 1984، ص314) فكل ما هو لساني في النص ليس إلا وسيلة فقط، مادام النص يضج بالعناصر غير اللسانية.مثل السياق وظروف الإنتاج،ووضعية التلفظ.، والنصوص المتحاورة في النص الواحد، والأصوات الكثيرة التي نسمع صداها بداخله.

ومنه، كي يتسنى لنا فهم أي خطاب، كان من الضروري أن نعيد بناء سياقه، الذي يرتبط بمحيط القول، فهو أفق غير لفظي، إضافة إلى هذا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ألاّ وجود لنص يولد من العدم فكل نص إلا ويحاور نصوصا أخرى تساهم في صنع لحمته، وهو البعد الحواري الذي يركز عليه باختين، لهذا كل العناصر المشار إليها مهمة على المتعلم أن يعي وجودها، لأن الوقوف عندها يساعده على فهم النص وتحليله، كما يهيئ له الطريقة المناسبة لتوظيف نصوص عده داخل نصه، سواء كان باحثا أو طالبا أو متعلما.

3. النص وبعده الحواري:

حظي النص أو الملفوظ في التنظير الباختيني بمكانة كبيرة جدا، فحيث لا يوجد نص لا يوجد مجال للتفكير أو الدراسة، فكل تعاملاتنا اليومية إلا وتقوم من خلال النصوص المتنوعة التي ننتجها ضمن سياقات مختلفة وأجناس خطابية متنوعة، نحاور بها بعضنا البعض، فالنص لا يتحقق إلا ضمن سلسلة التبادل اللفظي، التي تكون مشروطة بسياق معين للتلفظ، يحدده تناوب الذوات المتكلمة: "فالملفوظ مليء بأصداء وردود ملفوظات أخرى، ترتبط فيما بينها داخل وسط مشترك للتبادل اللفظي"(باختين،1984،ص289).

كما لا يمكن فهم ملفوظ ما إلا على أساس اعتباره إجابة عن ملفوظات سبقته، حين نقول سابقة فهذا يعني أن الآخر هو من قالها، إلا أن للآخر دورا مهما في تكوين ملفوظاتنا، فحين نتكلم أو نكون ملفوظا ما نأخذ بعين الاعتبار ما قاله الأخر، لهذا يقول باختين مبرزا أهمية الآخر في إنتاج خطاباتنا: "ليس الآخرون مجرد مستمعين سلبيين، لكن مشاركون فعّالون في التبادل اللفظي، فكل ملفوظ إلا ويتشكل من أجل الذهاب نحو هذه الإجابة"(باختين، 1984، ص303).

يختلف الآخر الذي سيستقبل النص، حسب جنس الخطاب، والسياق المستعمل فيه، لهذا أثناء البحث عن أسلوب النص أو دراسته يجب الإجابة على هذه الأسئلة، إلى من يتوجه النص؟ كيف يمثل الملقي أو يتمثل متلقيه أو مستقبل خطابه؟ ما هي قوة تأثير المستقبل على النص؟

من ثمة يصل باختين إلى هذه النتيجة: "إن التحليل الأسلوبي الذي يريد أن يحيط بكل مظاهر أسلوب الملفوظ، عليه أن يحلله ضمن سلسلة التبادل اللفظي، والملفوظ فيه ليس إلا حلقة لا يمكن إهمالها"(باختين،1984،ص398) منه لكي نصل إلى تحليل أسلوبي يحيط بكلية الخطاب علينا أن نقف عند الخطاب ككل داخل التبادل اللفظي لأنه جزء من هذا الكل،مع معرفة الجنس الخطابي المستعمل فيه.

ينتقد باختين الأسلوبية التقليدية التي لم تكن تهتم إلا بمحتوى الملفوظ، كما يعبر عنه المتكلم، من دون أي اعتبارات للآخر، الذي يُعد إقصاؤه من النص حائلا يعيقنا عن فهم جنسه وأسلوبه، لهذا يقول: "كل تواصل، كل تبادل لفظي، إلا ويتحقق في شكل تبادل ملفوظات، أي في بعد حواري"(تودوروف،1981،ص292)، فكل ملفوظ سواء كان خطابا أو محاضرة... يتعلق بمستمع، بفهمه وبجوابه، والمتكلم يكون واعيا بـالبعد الحواري لخطابه، لأنه لا يضع المستمع كشيء ثابت لا استجابة له، بل على العكس يعلم أن أمامه مستمعا حيا، فما يصدره هذا الأخير من حركات عينيه مثلا، يعتبرها المتكلم بمثابة رد عما يقول، وبالتالي هناك حوارية تتم بينهما أثناء تبادلهما للملفوظات، ويصدق هذا حتى على النص المكتوب، الذي يتمثل متلقيه من خلال ما كتب ويكتب اعتبارا لشروط ومتلق وظروف خاصة تساهم جميعها وهي تتحاور في إنشاء هذا النص مهما كان نوعه.

لهذا يرى أن الوجود الحقيقي للنص يكون دائما في حدود وعيين وذاتين، فالعلاقة الحوارية تتم بين ملفوظات داخل التبادل اللفظي، فملفوظان مهما كانا إذا قابلنا بينهما على صعيد المعنى فإنهما سيكونان علاقة حوارية لا محالة، من ثم كان التوجه الحواري سمة تطبع الملفوظ، فكل خطاب حسب باختين موجه نحو أحد قادر على فهمه، وتقديم إجابة حقيقية أو افتراضية، ويقود هذا التوجه نحو الآخر حتما إلى الأخذ بعين الاعتبار العلاقة الاجتماعية والهرمية الموجودة بين المتكلمين، والكل يؤثر على شكل الملفوظ، بالإضافة طبعا للوضعية المُتلفظ فيها، والسياق الاجتماعي للملفوظ. لهذا فالتوجه الاجتماعي[1] للملفوظ نجده في أي ملفوظ كان: "لأنه أحد القوى الحية والبناءة، ففي نفس الوقت الذي تُنظم سياق الملفوظ ووضعيته، تعمل على تحديد شكله الأسلوبي وبنيته"(تودوروف، 1981، ص299).

أما بالنسبة لوضعية التلفظ المرتبطة بأي تواصل اجتماعي، فكل نص مشروط بها وهذا العنصر خارج ـ لفظي ومهم من أجل فهم الملفوظ، ولكن السؤال الذي نطرحه ما هو الجزء الخارج ـ لفظي من الملفوظ؟

حسب باختين كل ملفوظ بتوجهه الاجتماعي إلا ويكون له معنى، لكن بعض النصوص يبقى معناها معتما لا نصل إليه، لأننا لا نعرف الظروف والسياق الذي ظهر أو قيل فيه الملفوظ، فنعطي له معنى مختلفا في كل مرة، كما أننا نصادف بعض النصوص التي لا تملك معنى واحدا، بل تتنوع معانيها حسب طريقة فهمها وبناء سياق تلفظها، لهذا يقول: "كل ملفوظ يظهر وكأنه مكون من قسمين، قسم لفظي وقسم خارج ـ لفظي"(تودوروف،1981،ص301). ويقولها في موضع آخر قسم محين وقسم فحوى القول، le sous-entendus. والقسم الخارج ـ لفظي متعلق بمعرفة ظروف الملفوظ وموضوعه، ومتكلميه، أو المتحاورين فيه، وطبقتهم، وتراتبيتهم الاجتماعية، كل هذه العناصر تبني معنى الملفوظ.

فليتسنى لنا فهم أي خطاب كان، من الضروري أن نعيد بناء سياقه، هذا السياق يرتبط بمحيط القول، فهو أفق غير لفظي، عليه يطرح باختين هذا السؤال: ما هي العلاقة التي تربط الأفق خارج اللفظي بالخطاب نفسه، أي الشيء الذي لم يقل مع الشيء الذي قيل؟ من المؤكد أن الخطاب لا يعكس الوضعية خارج ـ اللفظية كما تعكس المرآة شيئا ما، "وبالتالي يعتبر الخطاب بمثابة مكمل للوضعية"(تودوروف، 1981، ص190) ، منه تدخل وضعية التلفظ كعنصر جد مهم في التكوين الدلالي للملفوظ،
بالرغم من أنها عنصر خارج لفظي، إلا أنه يستحيل فهم الملفوظ من دونها، وعليه يكتسب الملفوظ تنغيمه وشكله لا من المواد اللفظية فقط، ولكن أيضا من السياق خارج اللفظي الذي يؤثر حتى على محتوى

[1] كما أن التوجه الاجتماعي يعكس جمهور الملفوظ، الذي لا يمكن أن يتم أي تواصل لفظي كان بمعزل عنه، عليه يصبح الوصول إلى بنية الملفوظ مرتبطا بالشروط الاجتماعية، "لأن الولادة الحقيقية للغة تكمن في الحدث الاجتماعي الذي يُحَيَن في التبادل اللفظي ويجد نفسه محققا في عدة ملفوظات، فما يعيننا على دراسة أي ملفوظ هو الوعي بـ: التنظيم الاقتصادي للمجتمع، والتبادل اللفظي ضمن التواصل الاجتماعي، إضافة إلى الأشكال النحوية للغة.انظر تودوروف، 1984، ص288)

الملفوظ، كما أن التقييم الاجتماعي يلعب دورا مهما في تنظيم شكل الملفوظ، يقول: "إن التقييم الاجتماعي هو ملك للحياة نفسها، ومن خلالها ينظم شكل الملفوظ وتنغيمه، فهو ليس بحاجة لإيجاد تعبير ملائم في محتوى الملفوظ"(تودوروف، 1981، ص193) ، فالتقييم يساعد على اختيار الشكل والكلمات، أما التنغيم: "فهو يشكل العلاقة الضيقة ما بين الخطاب والسياق خارج اللفظي، فالتنغيم يقود الخطاب إلى خارج حدوده اللفظية"(تودوروف، 1981، ص193).

لا يمكن فهم التنغيم، حسب باختين، إلا إذا استطعنا أن ندمجه مع التقييمات المتضمنة في القول أو "فحوى القول" sous entendus المرتبطة بواقع جماعة معينة، فيتموضع التنغيم دائما ما بين اللفظي وخارج اللفظي، ما بين الذي قيل والذي لم يقل، لهذا في التنغيم يجد الخطاب نفسه في علاقة مع الحياة، كما يجد المتكلم علاقته بالمستمع من خلال التنغيم، فهذا الأخير اجتماعي بامتياز، ولا يمكن فهمه خارج واقع التواصل الذي تم فيه الخطاب، لأن فيه دائما علاقة حية مع الحياة.

إذًا، لأن الخطاب لا يكتفي بذاته، أي بالمواد الأولية المكونة لبنيته، تبقى المقاربة اللسانية المجردة، بعيدة عن إدراكه، وإن كانت ضرورية في بنائه، فالروح الاجتماعية هي ما تجعل له معنى، لأن الملفوظ يولد ويحيا في سيرورة التفاعل الاجتماعي، كما أن دلالته وشكله محددان بشكل وطبيعة هذا التفاعل، وإذا نزعنا الملفوظ من الأرضية التي تغذى منها، نفقد المفتاح الذي يقودنا إلى فهم شكله ومعناه

كل العناصر المدرجة آنفا مهمة جدا من أجل أي تحليل نصي متفتح، يرى في كل الأبعاد الخارجية والداخلية التي تؤسس ما يسمى نصا، وإن كنا قد توقفنا عند ما يجعل من ملفوظ ما نصا، وتحدثنا عن بعده الحواري وسياقه وجنسه سنتوقف الآن، عند عناصر أخرى لا تقل أهمية عن العناصر التي تصنع وجود وجوهر النص، لأن حديثنا الآن سيقف عند البنى الداخلة في تكوين النص، فالنص ليس بنية نحوية أو صرفية أو تركيبية فقط، بل تضج فيه بعض البنى اللا متجانسة Hétérogènes التي تصنع وجوده وتغذي جوهره.

4. اللاتجانس النصي والخطابات المنقولة:

إذا أخذنا النص باعتباره وحدة ملتحمة تؤدي وظيفة أو وظائف معينة ترتبط ببنيته الكلية، فهذا لا يعني أبدا أنه بنية متجانسة، فخصوصية النص تلمع من بنائه المتنافر، ولا يمكن لأي دارس للنص أن يغفل عن مثل هذه الحقيقة، لهذا تفرض علينا الطبيعة المميزة للنص البحث في العناصر التي تبني لحمته المتنافرة من جهة وتجعله منسجما ووحدة متماسكة من جهة أخرى،فالتنافر النصي لا يعني أن تظهر الوحدات المكونة له بطريقة اعتباطية، بل على العكس فهي تملك نظامها الخاص، وكل نص إلا ويفرض هرمية خاصة في تنظيم الوحدات المتنافرة فيه(مانغينو، 1993، ص146).

من بين الأشكال الخطابية التي تصنع تنافرا داخل الخطاب نجد الخطاب المنقول بأشكاله المتنوعة الخطاب المباشر، وغير المباشر، وأيضا غير المباشر الحر، كما يجب الاهتمام بكل مؤشرات التنافر الصريح خاصة الأقواس، و أيضا مؤشرات عوالم الخطاب. والخطابات الداخلة في التكوين النصي تبرز أن النص تكثر فيه كلمة الآخر، لهذا خصص باختين فصلا كاملا من كتابه "الماركسية وفلسفة اللغة" (باختين، 1977، ص161)، لمعالجة قضية التركيب وتناول فيه الكلمة الغيرية والخطاب المنقول، مشيرا إلى تعقد ظاهرة حضور خطاب الآخر في الملفوظ وأهميتها، وهي ظاهرة لم تعتن بها الدراسة اللسانية لتعقدها، كما فصّل هذا أيضا في كتابه "شعرية دوستويفسكي"، في الفصل المخصص للكلمة (باختين،1986، ص263).

في هذا المؤلف بالذات ركز باختين على ظاهرة تعدد الأصوات أو البوليفونية التي خص بها أولا مؤلفات دوستويفسكي ثم اعتبرها ميزة تطبع كلام الإنسان حين يدخل في بنيته كلام الآخرين، فنسمع أصوات عديدة داخل الكلام الواحد، استعار باختين لفظة البوليفونيا من الموسيقى، ففي العصور القديمة لم تعرف الكنيسة إلا الأموفونيا أي الصوت الواحد في الغناء، ولكن انطلاقا من القرن التاسع بدأ إدخال مزج

الأصوات، ولهذا تفهم البوليفونية أو تعدد الأصوات في الموسيقى على أنها مزج لأصوات عديدة مستقلة عن بعضها، رغم أنها مرتبطة ببعضها البعض بقانون الهارمونيا،
وهي القدرة على اللعب بعدة نوتات في نفس الوقت، إذا تعدد الأصوات هو أن تغني أو تعزف في آن ألحانا متجانسة عموديا فيما بينها في كل جزء من الأجزاء رغم استقلالها اللحني الأفقي (الموسوعة الموسيقية).

فدوستويفسكي حسب باختين كان رائدا في طريقة سماعه للأصوات التي ترن في مجتمعه، ونقلها في أعماله الروائية في جو بوليفوني وحواري كبير جدا، لأن هذا الروائي كان متشبعا بثقافة موسيقية واسعة جعله يحسن سماع ونقل أصوات عديدة تتحاور فيما بينها في جو بوليفوني مفعم بالحركة.

وإن كان باختين قد ترصد تعددية الأصوات في هذه الروايات إلا أنه يؤكد ضرورة تبصر أن توظيفه لهذا المصطلح نبع من الموسيقى على سبيل المجاز إذ يقول: "من الضروري أن نشير إلى أن المقارنة التي أجريناها بين رواية دوستويفسكي وتعددية الأصوات في الموسيقى، لا تملك سوى معنى مجازيا لا أكثر،

إن صورة تعددية الأصوات ومزج الألحان العديدة، تشير فقط إلى تلك المشكلات الجديدة التي تبرز على الطريق عندما يخرج بناء الرواية على إطار الوحدة المونولوجية المألوفة، وكما يحدث في الموسيقى، فإن المشكلات الجديدة برزت عندما جرى تجاوز حدود الصوت الواحد، غير أن عناصر ومواد الموسيقى والرواية مختلفة إلى حد بعيد بحيث يصبح من المتعذر أن يدور الكلام حول شيء ما أكبر من المقارنة المجازية، أكبر من المجاز البسيط، إلا أننا نحول هذا المجاز إلى اصطلاح "الرواية المتعددة الأصوات" le roman polyphonique وذلك لأننا لا نجد اصطلاحا أدق من هذا، يتعين علينا فقط ألا ننسى حقيقة الأصل المجازي لاصطلاحنا هذا" (باختين،1986، ص32و33)

يؤكد باختين على ضرورة إبراز الاستعارة التي قام بها، في اختياره لمصطلح البوليفونية، لأنه المفهوم الذي ناسب فعلا ما جسده دوستويفسكي في رواياته، ولكن لولا ثقافة باختين الموسيقية لما استطاع أن يستعير هذا المفهوم، لتبرز في الوجود للمرة الأولى ما يسمى الرواية البوليفونية.التي لن تزول بأفول الظروف التي هيأت لوجودها لأن تعددية الأصوات تنطبق أيضا على حياتنا لا على الرواية فقط.

لهذا عرف استعمال البوليفونية في تحليل الخطاب تطورا باهرا من خلال ما قدمه العديد من الدارسين، نشير في هذا السياق إلى ديكرو الذي عالج قضية واحدية الذات المتكلمة من خلال تطويره لمفهوم البوليفونية عند باختين، على اعتبار أن الدراسات تقر أن كل ملفوظ يملك مؤلفا واحدا وواحدا فقط (ديكرو، 1984، ص171)، هذا ما يحاول ديكرو دحضه انطلاقا من مفهوم البوليفونية، على أساس أن النصوص متعددة ومختلفة، والنصوص الأدبية نجد فيها العديد من الأصوات التي تتحدث في نفس الوقت، وهذا يعني أن المؤلف يغلف نفسه بالعديد من الأقنعة. ولكن حسب ديكرو هذه النظرية طبقت على نصوص، أي على متتالية من الملفوظات، ولم تطبق أبدا على الملفوظات التي تُكَوِن هذه النصوص، من أجل تبيين أن المتكفل بها ليس ذاتا واحدة. لهذا توقف ديكرو عند ملفوظات بعينها وأبرز تعددية الذات المنتجة للملفوظ الواحد، وتحدث عن الأسلوب المنقول المباشر، ليوضح أن ملفوظا ما يمكنه أن يملك أكثر من صوت، خاصة في الخطابات أو الحوارات غير البسيطة التي فيها نوع من التعقيد(ديكرو، 1984، ص172).

لهذا السبب يصرح باختين في كتابه "جمالية الإبداع اللفظي" أنه: "من بين الأسباب التي جعلت اللسانيات تهمل أشكال الملفوظات تنافرها الصارخ، وبنيتها التكوينية، وخصوصية حجمها (طول الخطاب)"(باختين، 1984، ص288)، أي إلى تعقد بنية أشكال هذه الملفوظات التي لا يمكن للسانيات مقاربتها بآلياتها الاختزالية المنغلقة، التي غفلت عما في النص من بنى حوارية وخطابات متداخلة.

إذا حظيت دراسة تركيب الملفوظ عند باختين بأهمية بالغة، خاصة وأنه يشير إلى انعدام وجود دراسة ناجحة له ولمشاكله. على الرغم من أن اللسانيات درست وطرقت مشاكله من زاوية مورفولوجية أو صرفية، لهذا، حسب باختين، لا نجد دراسة مستقلة وناجحة للتركيب: "إن مشاكل التركيب تكتسي أهمية جد بالغة بالنسبة لفهم اللسان وتطوره، مع العلم أن من كل أشكال اللسان، تقترب الأشكال التركيبية أكثر من الخصائص الحقيقية لتلفظ أفعال الكلام".(باختين، 1977، ص156)

ذلك أن التحليلات التركيبية للخطاب تتطلب تحليلات الجسد الحي للتلفظ، لهذا من الصعب أن تتناول داخل نظام مجرد للسان. لأن الأشكال التركيبية هي أكثر تجسدا من الأشكال المورفولوجية والصوتية، كما أن الأشكال التركيبية مرتبطة بالشروط الواقعية للكلام.
فعندما درس باختين الجانب الحي من اللسان أعطى الأولوية للأشكال التركيبية على الأشكال الأخرى. إضافة إلى أن دراسة ناجعة للتركيب لا تستطيع أن تكون مثمرة إلا في إطار نضج نظرية التلفظ: "ومادام التلفظ باعتباره كلا، يبقي خارج الاهتمام اللساني، فلن يكون هناك فهم حقيقي وواقعي لأشكال التركيب".(باختين، 1977، ص156)

أشرنا مسبقا أن التلفظ في اللسانيات لم يحظ بالاهتمام، لأن مدار الدراسة اللسانية منصب بدرجة كبيرة على الجملة وما تطرحه من مشاكل، دون أن يكون الانتقال إلى الخطاب، أي إلى التلفظ الكامل، لهذا يحاول باختين خلافا للسانيين أن يدرس ويأخذ التلفظ ككل، حتى وإن كان مشكلا من كلمة واحدة باعتبارها تلفظا كاملا وليس كما يراها اللسانيون جزءا من الخطاب، وهذا ما تسهر الدراسات اللسانية النصية الحديثة على إبرازه.

إذًا، لا ينفلت من التحديد اللساني التلفظ الكامل فقط ولكن أيضا مجموع أجزاء التلفظ- المونولوجي، بما فيها الفقرات متنوعة التركيب والتي ينتقل محتواها من الكلمة المفردة إلى مجموعة كبيرة من الجمل المعقدة، لهذا: "وحدها دراسة أشكال التواصل اللفظي، وأشكال التلفظ المكتمل قادرة على إضاءة نظام الفقرات وكل المشاكل المماثلة، وكلما بقيت اللسانيات توجه بحوثها نحو التلفظ المونولوجي المعزول، ستبقى غير قادرة على تناول هذه الأسئلة بعمق، فتوضيح المشاكل الأكثر أهمية للتركيب هي كذلك ليست ممكنة إلا على أساس التواصل اللفظي".(باختين، 1977، ص159)

منه يعتبر التواصل اللفظي الأساس الذي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في دراسة التلفظ والتركيب، ولأن مشكل التركيب هو مشكل حضور خطاب الآخر فيه أو الخطاب الغيري Le discours d’autrui ، الذي يحتوي على: الخطاب المباشر، والخطاب غير المباشر، والخطاب غير المباشر الحر. وتغيرات استعمال هذه الأشكال التي نجدها في اللسان تساعد على نقل Transmission تلفظات الغير وعلى إدماج هذه التلفظات داخل سياق منسجم.

فلو حاولنا كتابة الكلام المنقول (وهو كلام الآخر) فلا يمكن وضعه برمته بين مزدوجين، كما يقول باختين،، بل يستعمل حسب حاجة المتكلم، ومنه يعتبر الجانب الشكلي لهذا الكلام الغيري من الناحية التركيبية لا يخضع فقط إلى القواعد النحوية للخطاب المباشر وغير المباشر، لأن طرق توظيف هذا الخطاب الغيري متنوعة، كما أن استعماله في الحياة اليومية يختلف عن استعماله في التمثل الأدبي، لأنه في الأولى عبارة عن طريقة نقلprocèdes de transmission، أما في الثانية فهو عبارة عن تَمَثُّل une représentation.

إضافة إلى هذا فإن كلام الآخر حين يستعمل في سياق ما يخضع لتعديلات: "تمس المعنى، كما أن السياق الذي يشمل الكلام الغيري يبدع خلفية حوارية يمكن لتأثيرها أن يكون على درجة كبيرة من الأهمية، وباللجوء إلى طرائق تضمين ملائمة، نستطيع التوصل إلى تحوير ملفوظ أجنبي تحويرا بارزا، مع نقله بطريقة مضبوطة"(باختين، 1977، ص159) ، لهذا فمن المهم عند دراسة مختلف أشكال نقل الخطاب الغيري، أن نفهم إطاره السياقي. أي جانبه التركيبي الذي لم تهتم به اللسانيات، والذي لا يفهم إلا ضمن التواصل اللفظي.

فأن نعيد قول نص ما بكلماتنا، هو أن نقوم بسرد ثنائي الصوت bivocale على كلمات الآخر، والسرد الذي يتم من خلال كلماتنا يجب أن يكون له طبيعته المختلطة: "فأي سرد يحكى بكلمات لابد أن يحتوي على خاصية مختلطة، وإعادة إنتاج الأسلوب والتعبير النصي المنقول في المواطن الضرورية"(باختين،1977، ص161)

مما تقدم لا يمكن تصور خطاب من الخطابات، سواء اليومية البسيطة أو الأكثر منها تعقيدا، خالية من مجموع تداخلات لغوية تستمد ديناميتها من التفاعل اللفظي الحي الذي يضج به أي مجتمع كان، لهذا

يقول باختين: "عند تأليف كل ملفوظ للإنسان الاجتماعي، ابتداء من الرد القصير في الحوار المألوف، إلى الأعمال اللفظية الإيديولوجية الكبيرة، فإنه يوجد في شكل معلن أو مستتر قسط من الأقوال الأجنبية الصريحة المنقولة بهذه الطريقة أو تلك، وداخل كل ملفوظ تقريبا يحدث نقاش متوتر وصراع بين كلامه الخاص وكلام الآخر... يتضح إذا أن الملفوظ جهاز أكثر تعقيدا ودينامية مما يبدو عليه".(باختين،1987،ص105).

ومن ثمّ لا يتأتى إبداع أي خطاب إلا من خلال الخطابات الغيرية الداخلة في تكوينه، وإبداعية تشكيل هذه الخطابات الغيرية أساسها إدراك دور السياق، الذي يُضّمن الخطاب التمثلي دلالة جوهرية.

خلاصة لما جاء في هذه المداخلة تعد الاستعانة باجتهادات وتنظيرات باختين في مجال تعليمية اللغات أمر مهم جدا، ذلك لأن هذا الباحث لم ير النص في أبعاده المختزلة التي تحيد عن سماع الأصوات التي ترن، والخطابات التي تتفاعل من أجل أن تقدم لنا النص ككل ذا معنى، لهذا اجتهد باختين في مؤلفاته المختلفة لإبراز أهمية الوقوف عند بنى النص المتنافرة والمتحاورة التي تصنع لحمته الدلالية والتأويلية المرتكزة على شروط الإنتاج وسياق التلفظ،التي من خلالها يؤدي النص وظائفه الاجتماعية والثقافية والتداولية التي أنتج من أجلها.

وحين يدرك المتعلم أن بنية النص قائمة على هذه الأوليات يستطيع بعدها في تعامله مع مختلف النصوص المتداولة أن يعرف حسب جنس كل نص مدى حضور الخطابات المتحاورة فيه، وطريقة ذلك الحضور، فمثلا حضور الخطابات الغيرية في نص علمي يختلف عن حضورها في النص اليومي، أو المسرحي أو الروائي أو السياسي، كما يستطيع وهو يهتم بإنتاج نصوص مختلفة أن يعي الطريقة الصحيحة التي تمكنه من استعمال خطاب الآخر في نصه، فحين يكون بصدد إعداد مذكرة للتخرج فإنه ينسجها من خلال عدد معين من المؤلفات التي تتداخل في ما بينها لتتآلف هذه المذكرة، ولكن طريقة توظيفه للنصوص المتحاورة داخل مذكرته تحتم عليه إتباع منهجية معينة ليبتعد عن التلفيق أو السرقة العلمية، وهكذا فحينما ننتج نصوصا فهي لا تخلو من نصوص أخرى تدخل في تكوين لحمتها. ولكن إدخال وتلاحم هذه النصوص يختلف حسب جنس النص.

المراجع:

Bakhtine Mikhaïl, *Marxisme et philosophie du langage. Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique*, Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les éditions de minuit,1977.

Todorov Tzvetan: Mikhaïl Bakhtine, *Le principe dialogique; Suivi de Ecrits du cercle de Bakhtin*e Edition du Seuil,1981.

Bakhtine Mikhaïl, le problème du texte in *Esthétique de la création verbale*, Bibliothèque des idées; Traduit du Russe par :Alfreda Aucouturier; Préface de Tzvetan Todorov ;Edition Gallimard 1984.

Bakhtine/ voloshinov: la structure de l'énoncé: in le principe dialogique. todorove

Mainguenau Dominique, Eléments de linguistique pour le texte littéraire. Dunod. Paris.1993.

ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، ترجمة الدكتور جميل نصيف التكريتي، مراجعة حياة شرارة، دار توبقال للنشر،الدار البيضاء، 1986.

Oswald Ducrot, *Le dire et le dit*, les éditions de Minuit, Paris 1984.

ميخائيل باختين: الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الأمان، الرباط، 1987.